فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة. قالت: فطفت»[1] وطافت فاطمة بنت النبي ﷺ وصفية وبقية أمهات المؤمنين، حتى عائشة التي كانت سعيدة أكثر من غيرها بهذا اليوم، فقد طهرت فيه من حيضها، وأصبح بإمكانها الطواف بالبيت، بعد أن أدت مع الحجيج مناسك الحج كلها عدا الطواف.

وإذا كانت عائشة قد طهرت وطافت، فإن صفية قد طافت ثم أصابها الدم بعد طوافها، وعن ذلك تقول عائشة رضي الله عنها «حججنا مع النبي ﷺ فأفضنا يوم النحر، فحاضت صفية. فأراد النبي ﷺ منها ما يريد الرجل من أهله؟ فقلت: يا رسول الله، إنها حائض. قال: حابستنا هي؟ قالوا: يا رسول الله، أفاضت يوم النحر. قال: اخرجوا»[2]

ويعني بذلك أنها لو حاضت قبل طواف الإفاضة، لوجب عليها أن لا تسافر حتى تطوف طواف الإفاضة، لكنها إذا أدت طواف الإفاضة فعليها إكمال باقي مناسك حجها، ثم السفر دون حاجة إلى طواف الوداع قبل مغادرة مكة.

أكمل النبي ﷺ طوافه وصلى ركعتي الطواف ثم قام بـ:

التوجه نحو بئر زمزم للشرب منه

يقول جابر: «فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم.. فناولوه دلواً فشرب منه»[3] ثم توجه عليه السلام إلى منى.

العودة بعد الإفاضة إلى منى

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى»[4]) «فكان ابن عمر يفيض يوم النحر، ثم يرجع فيصلي الظهر بمنى، ويذكر أن النبي ﷺ فعله»[5]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.
(٣) حديث جابر عند مسلم.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٠.
(٥) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

عاد ﷺ إلى منى ليمضي بقية أيام الحج في منى وتسمى هذه الأيام الباقية: «أيام التشريق» وهي: اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة.

وخلال تلك الأيام يجب على الحاج أن يبيت بمنى، لكن يجوز له التحرك خارج منى وزيارة الكعبة، لكن مبيته (أي قضاء الليل) يجب أن يكون في منى، وخلال تلك الأيام يجب على الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث يومياً، كل جمرة بسبع حصيات. ووقت الرمي يختلف عن وقت الرمي يوم النحر.

يقول جابر رضي الله عنه: «رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد فإذا زالت الشمس»[1] أي أن رمي أيام التشريق يكون بعد دخول وقت صلاة الظهر.

سنته عليه السلام وطريقته في الرمي:

هي أنه يأتي للجمرة الأولى، وهي الصغرى، فيرميها بسبع حصيات، يقول بعد كل رمية: الله أكبر. فإذا انتهى من الرمي تحرك عن يمينه، ثم استقبل القبلة، ورفع يديه ودعا طويلاً.

ثم يتحرك نحو الجمرة الوسطى، ثم يرميها بسبع حصيات، يكبر بعد كل حصاة، ثم يتحرك عن يساره ويستقبل القبلة، ويدعو دعاءً طويلاً رافعاً يديه.

ثم يتحرك نحو جمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات، ثم يغادرها دون أن يقف عندها.

فابن عمر رضي الله عنهما «كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات، يكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم حتى يسهل فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه، ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال، فيسهل ويقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه، ويقوم طويلاً، ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها ثم ينصرف، فيقول: هكذا رأيت النبي ﷺ يفعله»[2] وذلك لمدة ثلاثة أيام هي أيام التشريق. لكن من الممكن:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

(٢) صحيح البخاري ٢-٦٢٣.

الاكتفاء بالرمي يومين فقط

بحيث يستطيع الحاج مغادرة منى في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة قبل غروب الشمس، لكن إذا غابت الشمس قبل مغادرته، فيجب عليه المبيت في منى، ليرمي اليوم الثالث عشر. لقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾[1] ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من غربت له الشمس من أوسط أيام التشريق وهو بمنى، فلا ينفرن حتى يرمي الجمار من الغد»[2] لكن:

المبيت في منى ليس واجباً على كل الحجيج

فالنبي ﷺ سمح للمضطرين، وأصحاب الأعذار بالمبيت خارج منى فقد «استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى، من أجل سقايته فأذن له»[3] والسقاية هي تقديم الشراب إكراماً لضيوف بيت الله.

يتحدث ابن عباس عن سقايتهم فيقول: «إن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها. فقال: اسقني. قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح. ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه يعني عاتقه، وأشار إلى عاتقه»[4].

وكان العباس يقدم النبيذ المباح.. الذي لم يتحول إلى خمر، وقد انتقد أحد الأعراب بني العباس تقديمهم للنبيذ، حيث يروي أحد الجالسين أثناء ذلك الحوار واسمه: بكر بن عبد الله المزني فيقول: «كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن، وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن

---

(١) البقرة: ٢٠٣.
(٢) سنده صحيح رواه مالك ١-٤٠٧: عن نافع عن ابن عمر: وهذا أصح الأسانيد.
(٣) صحيح البخاري ٢-٥٨٩.
(٤) صحيح البخاري ٢- ٥٨٩.

حاجــة بكــم، أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل. قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أســامة فاستســقى، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول اللــه ﷺ»[1] ومن أجل ذلك توجه العباس نحو مكة للمبيت بها من أجل الســقاية، كما أذن النبي ﷺ:

للرعاة أن يرموا بالليل

حيث «رخص للرعاء أن يرموا بالليل، وأن يجمعوا الرمي»[2] «وقد أوضح الصحابي الذي روى هذا الحديث معنى الجمع بقوله: «إن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا يوماً، ويدعــوا يوماً»[3] أخبر عليه الســلام أصحابه بذلك، وقضى أيام التشــريق بمنى، ولما انتهت أيام التشــريق الثلاثة، توجه ﷺ نحو مكة ليطوف بالكعبة سبعة أشواط تسمى: (طواف الوداع)، وبين لأصحابه أن:

طواف الوداع واجب

فقــال لهم: «لا ينفرن أحــد حتى يكون آخر عهده بالبيــت»[4] ثم طاف النبي ﷺ طواف الوداع.. ســبعة أشــواط يفعل مثل ما كان يفعل في أي طواف. ويفعل الصحابة مثل ما فعل لكن:

ماذا عن المرأة الحائض وطواف الوداع

هل تحبس من معها فينتظرونها حتى تطهر، أم تغادر مكة معهم ولا شــيء عليها؟ هذه المشكلة تعرضت لها أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٥٣.

(٢) ســنده صحيــح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ حدثنا ســلم بــن جنادة ثنا وكيع عن مالك عــن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبي بداح عن أبيه أن رســول الله ﷺ. ســلم ثقة التقريب ٢٤٥ وعبد الله تابعي ثقة مر معنا: التقريب لكنه سمع الحديث من والده الثقة أبي بكر كما في الحديث التالي وأبو البداح تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٩٤ ووالده صحابي رضي الله عنه.

(٣) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

مرة أخرى تروي عائشة العالمة قصتها فتقول: «إن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ حاضت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ.. فقال: أحابستنا هي؟ قالوا: إنها قد أفاضت.

قال: فلا، إذاً»[1] أي أنها لن تحبسكم عن الخروج، فليس عليها طواف وداع، ويكفيها طواف الإفاضة عن طواف الوداع، وذلك لما «قالوا: يا رسول الله، أفاضت يوم النحر. قال ﷺ: اخرجوا»[2] ويقول ابن عباس: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»[3] ولكن بشرط أن تكون قد طافت طواف الإفاضة.

وقبل أن يخرج النبي ﷺ حدد لأصحابه مكاناً للاجتماع قبل الانطلاق.. اسمه: (المحصب)، وهو ذلك المكان الذي يحمل ذكريات مريرة جداً للنبي عليه السلام وأهله وصحابته، عندما حاصرتهم قريش فيه وقاطعتهم، ومنعت الاتصال بهم والتعامل معهم. قال أسامة بن زيد: «قلت: يا رسول الله، أين تنزل غداً في حجته قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ ثم قال: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة المحصب»[4] فيقول عليه السلام: «حين أراد أن ينفر من منى: نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تقاسموا على بني هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوها، ولا يكون بينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ»[5].

خرج النبي ﷺ وخرج الصحابة رضي الله عنهم، ولكن قبل خروجهم طلبت عائشة من النبي عليه السلام طلباً فيه قربة إلى الله.

عائشة تريد أداء العمرة

وهي تشتكي من أن الناس سوف يرجعون إلى ديارهم وقد أدوا عمرة وحجاً، أما هي فستعود وقد أدت حجة فقط.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٥.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.
(٤) صحيح البخاري ٣-١١١٣.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والبيهقي في الكبرى ٥-١٦٠ واللفظ له.

تقــول رضي الله عنها: «قدمت مكة وأنــا حائض، لم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشــكوت ذلك إلى رســول الله ﷺ فقال: انقضي رأســك وامتشطي، وأهلي بالحج، ودعي العمرة.

قالــت: ففعلــت فلما قضينا الحج»[1] «قالت: يا رســول اللــه يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة؟»[2] «أيرجع الناس بأجرين، وأرجع بأجر؟

فأمــر عبد الرحمن ابن أبي بكر أن ينطلق بها إلى التنعيم. قالت: فأردفني خلفه على جمل له»[3] لكي تحرم بالعمرة من ذلك المكان الذي يســمى (التنعيم)، وهو مكان خارج الحرم.

تقــول رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قــال: «اذهبي مع أخيك إلى التنعيم، فأهلي بعمرة ثم موعدك كذا وكذا»[4]

وتقدم عائشــة تفصيــلات أكثر عن ذلك المكان، الذي حدده النبي ﷺ ويســمى: المحصب، فتقول: «دعا عبد الرحمن ابن أبي بكر فقال: اخرج بأختك من الحرم، فلتهل بعمرة، ثم افرغا، ثم ائتيا هاهنا فإني أنظركما حتى تأتياني.

قالــت: فخرجنا حتى إذا فرغت وفرغت من الطواف ثم جئته بســحر فقال: هل فرغتــم؟ فقلت: نعــم فآذن بالرحيل فــي أصحابه، فارتحل الناس فمــر متوجهاً إلى المدينــة»[5] فتقــول: «فلقيني النبي ﷺ وهــو مصعد من مكة، وأنــا منهبطة عليها»[6] «فاعتمرت فقال ﷺ: هذه مكان عمرتك»[7]

ثم لحقت هي وأخوها عبد الرحمن بالنبي ﷺ، ولما التحقت عائشة بالركب حدثت قصــص طريفة بين زوجات النبي ﷺ، وبينه وبينهن. لعبــت الغيرة دورها المعتاد رغم عودة الجميع من رحلة الحج الرائعة، وتألق النبي ﷺ كعادته بسلوكه الرائع.. في طريق الأشواق إلى المدينة كان النبي عليه السلام يشعر بمعاناة و:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٧٠.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٧٣.
(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٠.
(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.
(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٥.
(٦) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.
(٧) صحيح البخاري ٢-٥٩٠.

شكوى زوجته صفية من جملها

وقد كانت صفية قاسية على مشاعره الفياضة، وقد استغلت صفية كون ذلك اليوم يومها كي تنهل المزيد من الحنان والدلال، لكنها بالغت في الشكوى حتى كلفتها مبالغتها تلك متعة يومها ذلك.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كانت صفية مع رسول الله ﷺ في سفر، وكان ذلك يومها فأبطأت في المسير، فاستقبلها رسول الله ﷺ وهي تبكي، وتقول: حملتني على بعير بطيء.

فجعل رسول الله ﷺ يمسح بيديه عينيها، فأبت إلا بكاء [وجعلت تزداد بكاء، وهو ينهاها فلما أكثرت زبرها وانتهرها، وأمر الناس بالنزول، فنزلوا ولم يكن يريد أن ينزل]. فغضب رسول الله ﷺ وتركها، فقدمت، فأتت عائشة فقالت: يومي هذا لك من رسول الله ﷺ إن أنت أرضيتيه عني.

فعمدت عائشة إلى خمارها، وكانت صبغته بورس وزعفران فنضحته بشيء من ماء، ثم جاءت حتى قعدت عند رأس رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: ما لك؟ فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فعرف رسول الله ﷺ الحديث فرضي عن صفية.

وانطلق إلى زينب فقال لها: إن صفية قد أعيا بها بعيرها، فما عليك أن تعطيها بعيرك؟

قالت زينب: أتعمد إلى بعيري فتعطيه اليهودية؟

فهجرها رسول الله ﷺ ثلاثة أشهر فلم يقرب بيتها، وعطلت زينب نفسها، وعطلت بيتها، وعمدت إلى السرير فأسندته إلى مؤخر البيت، وأيست أن يأتيها رسول الله ﷺ.

فبينا هي ذات يوم إذا رسول الله ﷺ فدخل البيت، فوضع السرير موضعه، فقالت زينب: يا رسول الله، جاريتي فلانة قد طهرت من حيضتها اليوم، هي لك، فدخل عليها رسول الله ﷺ ورضي عنها»[1]

---

(١) سنده قوي رواه النسائي في الكبرى ٥-٣٦٩ أخبرنا محمد بن خلف قال ثنا آدم قال نا سليمان بن المغيرة قال ثنا ثابت البناني عن أنس.. ابن خلف العسقلاني صدوق التقريب ٤٧٧ وشيخه ابن أبي إياس ثقة عابد من رجال البخاري: التقريب ٨٦ وبقية السند صحيح على شرط مسلم. والزيادة عند أحمد ٦-٣٣٧ من طريق شميسة وهي لم توثق.

كان بيت النبوة بيتاً كبقية البيوت.. يجري فيه ما يجري في تلك البيوت من غيرة وخصومة، لكن النبي ﷺ كان يقدم من خلال تلك الخلافات حلولاً لأمته، دون مثالية أو إسفاف.

حفصة تسب صفية

ربما وجدت حفصة بنت عمر في أصل صفية اليهودي مكاناً جيداً للوخز والإيلام، وإشباعاً لغيرتها منها، لكن صفية وجدت الإنصاف في كلمات زوجها العذبة الحانية.

يقول أنس: «بلغ صفية أن حفصة قالت: يا بنت يهودي. فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي.

فقال: ما يبكيك؟ فقالت: قالت حفصة إني ابنة يهودي.

قال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتقي الله يا حفصة»[1]

فأي نسب بعد هذا النسب، لكنها الغيرة البشرية التي تلم بالمرأة، والتي لا يجب أن تتحول إلى عداوة أو شحناء، أو إضرار بالآخر. والتعامل معها فن يجيده النبي ﷺ، ويتفنن في تشكيله لنساء الأمة ورجالها، وهن معذورات، فالرجل الذي يغرن عليه ليس كبقية الرجال. إنه محمد ﷺ، الذي كانت عائشة من فرط حبا ووَلَهِهَا به تتحسس فراشه وهو نائم، خشية أن يغادره.

ذات ليلة كان نائماً معها، فاستيقظت فلم تجده، فانتابها شعور تتحدث عنه فتقول: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه. فتحسست، ثم رجعت فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت.

فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر»[2]

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-٣٧٣ وغيره من طريق عبد الرزاق أنا معمر عن ثابت البناني عن أنس ابن مالك وهو سند مشهور على شرط الشيخين.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

إنه الحب الذي يذهل صاحبه، ويذهل عائشة حتى كررت فعلها مرة أخرى، ولكن بصورة أشد تأثراً.

تقول رضي الله عنها: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: بلى. قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع. فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويداً، فجعلت درعي في رأسي واختمرت، وتقنعت إزاري.

ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت، فأسرع، فأسرعت، فهرول، فهرولت، فأحضر، فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: مالك يا عائش حشياً رابية؟

قلت: لا شيء. قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير. قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي... فأخبرته.

قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي. قلت: نعم. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني. ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم.

قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[1] وتمر الأيام وينزل الله على نبيه ﷺ سورة النصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ وكان لنزول هذه السورة ظلالٌ مؤثرٌ ووقعٌ تتحدث عنها عائشة وابن عباس حديثاً مؤثراً فما هي:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٧٠.

آثار سورة النصر

تقول رضي الله عنه «ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي»[1]

لم تترك هذه المرأة العظيمة هذا الأمر يمر دون استفسار، فهي لا تحب رسول الله ﷺ فقط، بل تحب سنته وتعشق التتلمذ على يديه، فتقول «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه.

فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»[2] وقد فسرها عمر وابن عباس بأنها:

نعي مبكر للنبي عليه السلام

في حوار جرى بين عمر رضي الله عنه وبين أشياخ بدر بحضور ابن عباس، سأل عمر أولئك الأشياخ: «ما تقولون في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري. أو لم يقل بعضهم شيئاً.

فقال لي: يابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»[3].

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٣.

إذاً، فهل اقترب أجله عليه السلام.. هل آن الأوان للرحيل؟ لماذا راجع معه جبريل القرآن مرتين هذا العام بدلا من مرة واحدة كما يفعل كل عام؟ هل هي علامة الوداع أيضاً؟

لم تكن تلك المشاعر لتأخذ النبي ﷺ بعيداً عن هموم أمته وأمر دعوته.. كان يغرس الحياة في النفوس.. كان يشعلها ويأخذها إلى الإنجاز بلا حدود.

ذات يوم خاطب أصحابه محرضاً إياهم على زرع الحياة في تلافيف الموت.. خاطبهم خطاباً لا يعرف حدوداً للإبداع ولا زمنا للتوقف فقال لهم: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليفعل»[1] مالذي سيجنيه غارس فسيلة نخل تحتاج إلى سنوات لتنمو وتثمر؟ ما الذي سيعود عليه من غرسها والقيامة ستقوم بين لحظة وأخرى؟

لا شيء سوى أن الإسلام جاء لتظل حياة المسلم إبحاراً نحو اللا نهايات، وإبداعا دون توقف.

كما كان ﷺ ينظر إلى ما بعد الموت، فالموت مرحلة لا أكثر في حياة المسلم. لقد استدعى ﷺ أسامة بن زيد وأمَّره على جيش، وأمره بالتوجه نحو الشام. ولما أحس من بعض الرجال نوعاً من التبرم بإمارة أسامة الأسمر: «فقالوا فيه؟ فقال النبي ﷺ: قد بلغني أنكم قلتم في أسامة، وإنه أحب الناس إلي»[2] «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله! وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[3]

كانت كلمات تواصل التذكير والغسل لبقايا لوثات الجاهلية التي لا تكف عن العودة كلما سنحت الفرصة، وكانت كلماته عليه السلام كالوداع لأسامة وللدنيا، واقتراب الوداع مرير، فهل ستحتمله القلوب؟ هل سيقوى عليه قلب فاطمة وعائشة وبقية أمهات المؤمنين؟

ذات يوم كانت عائشة تشتكي رأسها فقالت: «وارأساه.

---

(١) سنده ثلاثي صحيح رواه الطيالسي ١ - ٢٧٥ حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن زيد عن أنس مرفوعا وهشام ثقة من رجال الشيخين التقريب ٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

فقال رسول الله ﷺ: ذاك لو كان وأنا حي، فأستغفر لك وأدعو لك. فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذاك[1] لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك.

فقال النبي ﷺ: بل أنا وارأساه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائلون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون»[2] «ادعي لي أبا بكر وأخاك، حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[3]

كانت كلمات كالوداع، فقد ألم بالنبي ﷺ مرض بدأ يزداد شدة يوماً بعد يوم.. مرض أقعده وأثقل حركته حتى عن التنقل بين أبيات زوجاته، وذلك بعد عودته من دفن بعض أصحابه رضي الله عنهم.. تقول عائشة رضي الله عنها: «رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه. قال: بل أنا والله يا عائشة.. وارأساه. ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي، فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟

فقلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك، رجعت إلى بيتي فأعرست ببعض نسائك.

فتبسم رسول الله ﷺ، وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعر به وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي. فأذِنَّ له. فخرج رسول الله ﷺ بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر[4] تخط قدماه الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيتي»[5]

كان مشهداً يدمي القلب لمن رآه.. نبي الله لا يستطيع السير على قدميه، وهو الذي كان يقود الجموع قبل أشهر إلى تبوك ومكة.

---

(١) أي لومت أنا.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٨.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٥٧.

(٤) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩ واللفظ له والبيهقي في الدلائل ٧-١٦٩: حدثني يعقوب بن عتبة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة يعقوب ثقة التقريب ٦٠٨ والزهري ثقة ثبت- التقريب ٥٠٦.

ها هي قدمـــاه تخطان على الأرض خطوطاً، وآثاراً كآثار المســـافرين.. المغادرين بالقلوب والأرواح.

فنـــزل عليه الوحي في تلـــك الأيام يخبره أن الله يخيره بـــين لقائه أو البقاء حياً، فكانت الإجابة كما تبوح آلام عائشة حيث تقول: «غمر رسول الله ﷺ واشتد به الوجع فقال: أهريقوا علي من سبع قرب، من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم.

قالـــت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمـــر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حســـبكم حســـبكم»[1] لقد «قال بعد ما دخل بيته واشتد وجعه: هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لَعَلِّي أعهد إلى الناس.

وأُجْلِسَ في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا: أن قد فعلتن. ثم خرج إلى الناس»[2] «فصلى بهم وخطبهم»[3] ليخبرهم بجوابه لوحي الله، ويبدو أن هذه الخطبة التي ارتجلها يوم الأربعاء قد تكون:

آخر خطبة للنبي ﷺ

يقول ابن عباس: «خرج رســـول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأســـه بخرقة، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفســـه وماله مـــن أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنـــت متخذاً من الناس خليلاً لاتخـــذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإســـلام أفضل. ســـدوا عنـــي كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»[4]

كان أبـــو بكر محوراً من محـــاور تلك الخطبة الوداعية.. وكان أبو بكر أكثر الناس استيعاباً لمعناها، وأشد الناس تأثراً بها، فقد سالت دموعه وسالت، ولم تتوقف إلا بعد أن رجاه الحبيب محمد ﷺ وناشده أن يتوقف عن البكاء، وكيف لا يبكي وهو يرى نبيه وصاحبه، وصديق طفولته وشبابه وشيخوخته يهم بالرحيل.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وهو جزء من الحديث السابق

(٢) صحيح البخاري ١-٨٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٤.

(٤) صحيح البخاري ١-١٧٨.

أبو سعيد الخدري كان هناك.. يصف مشاعره التي حيرتها دموع أبي بكر وأحزانه، ثم يبوح فيقول: «خطب النبي ﷺ فقال: إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

فبكى أبو بكر رضي الله عنه [وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا]. فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ! إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا.

قال ﷺ: يا أبا بكر، لا تبك. إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»[1]

ثم فاض بالوفاء.. وللوفاء عنوان هو الأنصار، خاطب عليه السلام أمته ليوصيها بأحب الأقوام إليه (الأنصار) وكان المرض قد أعيى جسده الشريف فلم يستطع القيام، فجلس على المنبر من شدة الألم، وكان «عليه ملحفة[2] متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسماء[3] حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً، أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»[4]

كان ﷺ يخطب رأفة ورحمة بأمته، من أن تمزقها الخلافات بعد رحيله، بعد هذا الحب الغامر والأخوة الحانية.. بعد هذه الفتوحات وعلو التوحيد وأهله، ونظافة الجزيرة من الأصنام والأوثان والجاهلية. كان يخطب امتناناً لمن آزره وعاضده في مسيره الطويل المضني.. كان يخطب مؤكداً أن العواطف نحوه ستتأجج وتجمح بعد رحيله، ولا بد للعواطف من سياج وإلا جمحت بأهلها، وساقتهم بعيداً عن التوحيد الذي جاهد من أجله.

---

(١) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.
(٢) أي لحاف.
(٣) تميل للسواد، أو عليها أثر الزيت .
(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٨٣.

يقول أحد الصحابة «سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً. ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[1]

ثم نهض ﷺ نحو بيت عائشة الملاصق للمسجد، ليمكث فيه ما تبقى من أيامه التي يبدوا من شدة مرضه أنها قليلة. وكان الصحابة رضي الله عنهم يقومون بعيادته، والاطمئنان على حاله..

أحدهم عبد الله بن مسعود الذي يقول: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً؟ قال: أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم.

قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال: أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[2]

خرج ابن مسعود وجاء غيره، بينما كان المرض ضيفا ثقيلا.. لا يريد مغادرة جسده الطاهر. اشتد مرضه ﷺ وألمه حتى أغمي عليه فنادوا عمه العباس، فتألم لمنظر حبيبه، فاقترح أن يقدم له علاجاً يسمونه: (اللد) واللد هو أن يسقى المريض دواءاً من أحد شقي الفم، فوافق من كان موجوداً على اقتراح العباس، ففتحوا فم النبي ﷺ ولدوه، فلما أفاق بعد مدة احتج عليهم، وأمر بمعاقبة كل من شارك في ذلك بعقاب ظريف.

تقول عائشة: «ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وتتام به وجعه حتى غمر، واجتمع عنده نساء من نسائه: أم سلمة وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين، منهم أسماء بنت عميس، وعنده عمه العباس بن عبد المطلب. وأجمعوا على أن يلدوه.

فقال العباس: لألدنه. فلد فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله، عمك العباس - قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض وأشار نحو أرض الحبشة -.

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٧٧.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢١٣٩.

قال: ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب. فقال: إذن ذلك لداء، ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لد، إلا عمي.

تقول عائشة: فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة - لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا»[1] وهو عقاب أشبه بالمزاح، أما ما يعانيه عليه السلام، فكان أثرا من آثار أمر كاد يودي بحياته في سابق الأيام، وهو الآن يحدث عائشة عنه.. عن:

آلام سم اليهودية

يخاطبها وهي تمرضه فيقول: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»[2] أي انقطاع عرقي من أثر ذلك السم.

وجاء يوم الخميس

يقول ابن عباس «يوم الخميس، وما يوم الخميس؟

ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع [فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا] فقالوا هجر[3] رسول الله ﷺ. قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، وأوصى عند موته بثلاث:

---

(١) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١١ معلقا ووصله الحاكم وله شاهد عند الدارمي١-٦٠

(٣) تعب وبدأ يهذي من شدة الألم.